المأمون والعلوم الكونية[1]

قال بعضهم . « الناس على دين ملوكهم » وإنه لعمر الحق قول صائب لأن الملك أو الخليفة أو الأمير بسبب علو مركزه الإجتماعى وغناه المادى قادر أن يفعل، فما عليه إلا أن يأمر حتى يطاع . فإرادته من تلكم الإرادات الايجابية الفعّالة .

ولقد كان المأمون الخليفة العباسى عالماً فكان عصره ولا ريب العصر الذهبى للعلوم العربية وما أشبهه بعصر « بركليس » فى التاريخ اليونانى . ونحن نرجوا فى كلمتنا هذه أن نوفق إلى أن نتحدث بقدر الإمكان عن أهم ما أسداه خليفتنا المأمون إلى العلوم الكونية من الخدمات الجليلة . فالمأمون فى نظرى من أكبر العوامل فى ازدهار عصره العلمى وسنرى فيما يلى مقدار ما فى هذا الرّأى من الصحة والصواب .

يقول ابن خلّكان فى كتابه « أخبار الحكماء » بأن سبب النهضة العلمية والفلسفية فى عصر « المأمون » حلمه الذى قال فيه : « رأيت فيما يرى النائم كأن رجلا على كرسى جالساً فى المجلس الذى أجلس فيه فهيّبته وتعاظمته وسألت عنه فقيل لى : هو « أرسطاطاليس » فقلت : أسأله عن شىء فسألته : « ما الحسن ؟ » فقال : « ما استحسنته العقول » فقلت : ثم ماذا ؟ قال : « ما استحسنه الجمهور » قلت : « ثم ماذا ؟ » قال : « ثم لا ثم » فكان هذا المنام من أوكد الأسباب فى إخراج الكتب ونقلها . ثم يقول الأستاذ « الطويل » (معرب قسم الفلسفة والإلهيّات من كتاب « تراث الإسلام » معلّقاً على الرّواية المتقدّمة : « إن هذا الكلام مردود عقلا » .

والذى أعتقده أنا أن هذا الحلم لا يمكن أن يكون سبباً فى نهضة عبقرية كتلكم النهضة ، فما عهدنا الأحلام بانية للنهضات . فكون هذا الحلم مسبباً لتلكم النهضة العلمية العظيمة هو المردود عقلا لأن لنهضة الأمم أسبابا أعمق من ذلك فإن الأمم لا تنهض إلا بعد جهاد ناصب وكفاح عظيم يتطلّب عقوداً وأجيالا .

أما حلم المأمون فهو فى نظرى ليس مردوداً عقلا وذلك أن الأحلام صدى للأمانى والرغبات ، ويحدثنا التاريخ بأن المأمون نشأ على حبّ العلم ولم لا ينشأ على ذلك وهو ابن الرشيد وربيب البرامكة ؟ وكان العصر عصر علم وتأليف وترجمة فليس من المستبعد إذن والحالة هذه أن يكون خليفتنا قد قرأ أو سمع لإرسطاطاليس ما يشابه ذلك القول الذى رواه فى حلمه ، فربما عنى مأموننا العبقرى أيضاً أن يرى ذلك الفيلسوف العظيم وأن يحادثه فأتاله الحلم مبتغاه . وحتى ولو فرضنا أن هذه القصة مجرد أسطورة فحسبنا من هذه الأسطورة أنها تشير إلى عظيم ولع المأمون بالعلوم مما حدا به إلى أن ينشىء أول مدرسة للترجمة فى العالمين العربى والإسلامى .

أما رئيس هذه المدرسة فهو حُنَين ابن إسحاق العبادى الذى كان يجيد الفارسية واليونانية والعربية والسريانية وأما أساتذتهم فهم : إبنه إسحاق بن حنين وابن أخيه حبيش والحجاج بن مطران وابن البطريق ودبان البراهمى الذى كان يترجم من السنسكريتية إلى العربية وغيرهم وغيرهم .

ومن الكتب التى ترجمها حنين بن إسحاق وعلق عليها بأمر الخليفة المأمون : كتاب « الإيساغوجىّ » لفرفوريوس وكتاب « الجمهورية » لأفلاطون « والمقولات » والطبيعيات والخلقيات لارسطو وتلخيصات « نقلاوس » الدمشقى وتعليقات « الاسكندر الأفروديسى » والقسم الأكبر من مؤلفات « أبقراط » و « جالينوس » العلمية ولقد فقد لجالينوس هذا كتب سبعة فى علم التشريح فى أصلها اليونانى إلا أنها لحسن الحظ محفوظة فى اللغة العربية .

ولقد أجمع الرّواة على أن المأمون كان يعطى العاملين فى حقل المدرسة الآنفة الذكر مقدار ما يترجمونه ذهباً ، ومن الطريف أنهم كانوا لذلك يكتبون على ورق غليظ وبحروف كبيرة وأسطر متباعدة ! وإننى لأشك فى إقبال هؤلاء على ترجمة كتب الفلسفة والطبيعة والرياضة بهذا

---

(١) نال إحدى جوائز محطة الشرق الأدنى للاذاعة العربية بمسابقتها المعقودة يوم الجمعة ٢٥ إبريل سنة ١٩٤٧ .

النشاط العظيم لو لم يكن خليفتنا من ورائهم يغدق عليهم هباته ويرعاهم بطرف تشجيعه ورضاه . فإن دلّنا هذا على شيء فإنما يدلنا على أن الخليفة المأمون كان عاملا من أكبر العوامل فى نهضة عصره العلمية .

ومما هو جدير بالذكر فى هذا المقام أن أحد الفلاسفة الأوربيين يقول : « إن القاعدة عند العرب : « جرّب وشاهد ولاحظ تكن عارفا » وهذه على ما أعتقد سنة حميدة استنها خليفتنا العظيم ، وهنا نرجع إلى عبارتنا الأولى « الناس على دين ملوكهم » نعم إنهم حقا وصدقا على دين ملوكهم لأن المأمون ساعد كثيراً فى طبع العلوم عند العرب بذلكم الطابع التجريبى الأصيل ولنرى مصداق هذا الرأى حسبنا أن نستمع إلى هذه الرّواية التى أوردها « ابن خلّكان » فى كتابه : « وفيّات الأعيان » حيث يقول : « إن المأمون كان مغرى بعلوم الأوائل وتحقيقها ورأى فيها أن دور كرة الأرض أربعة وعشرين ألف ميل (كل ثلاثة أميال فرسخ) فأراد المأمون أن يقف على حقيقة ذلك فسأل بنى موسى عنه . فقالوا : « نعم هذا قطعى » فقال لهم « أريد منكم أن تعملوا الطريق الذى ذكره المتقدمون حتى نبصر هل يتحقق ذلك أم لا » فأخذوا معهم جماعة ممن يثق المأمون إلى أقوالهم وبركن إلى معرفتهم بهذه الصناعة وخرجوا إلى سنجار (وهى صحراء مستوية) » ثم يصف ابن خلّكان بعد ذلك الصورة العملية التى قاسوا بواسطتها درجة من خط نصف النهار لمعرفة محيط الأرض وبعد ذلك يقول : « فلما عاد بنو موسى إلى المأمون وأخبروه بما صنعوا وكان موافقاً لما رآه فى الكتب القديمة من استخراج الأوائل طلب تحقيق ذلك فى موضع آخر فسيرهم إلى أرض الكوفة وفعلوا كما فعلوا فى سنجار فتوافق الحسابان (وعند ذلك فقط) علم المأمون بصحة ما حرّره القدماء واقتنع » . فهذه الرواية وأمثالها تنطق بأبلغ عبارة بأن المأمون اعتنق فكرة العلم التجريبى الذى هو أكبر دعامة من دعائم المدنية الحديثة ويكفى فى معرض الاشادة بفضل العرب فى ميدان العلم التجريبى أن نقول كما قال الأستاذ قدرى حافظ طوقان : « إن العرب عند ما تعمقوا فى علم الفلك طهّروه من أدران التنجيم والخزعبلات وأرجعوه إلى ما تركه عليه علماء اليونان علما رياضياً مبنياً على الرّصد والحساب وعلى فروض تفرض لتعليل ما يرى من الحركات والظواهر الفلكية . وعندى أنه يمكننا أن نطبق قول الأستاذ الفاضل على جميع التراث العلمى الذى انتهى إلى العرب فى عصرهم الذهبى فأصبح أمانة غالية فى أعناقهم ورسالة عظمى من رسالاتهم فقاموا على حفظ هذه الأمانة خير قيام وبلّغوا رسالتهم كأحسن ما يمكن أن تُبلّغ الرسالات وحملوا مشاعل النهضة العالمية فى عصرهم فتركوا فى التاريخ ذلك الأثر الخالد الذى لا يمكن أن يمحى على كر العصور والأيام وما هذا إلا لأنهم عرضوا تلك العلوم على محك التجربة والعقل فمحّصوها وزادوا عليها ويرجع كثير من الفضل فى ذلك على ما أعتقد للخليفة المأمون الإمام البادىء بهذه السنة الحميدة .

هذا ولا ننسى أن المأمون هو أول خليفة فرض على الصّيادلة والأطباء اجتياز امتحان خاص وأوّل من أشار باستعمال الآلات فى الرّصد فأمر ببناء مرصد على جبل قاسيون فى دمشق ومرصد آخر فى بغداد . وتحت رعايته وبإشارة منه حسبوا الكسوف والخسوف وذوات الأذناب ورصدوا الاعتدالين الربيعى والخريفى واستعملوا الاسطرلاب لأول مرة .

وهنا يحسن بنا أن نذكر بعض مفاخر الأستاذ الخُوَارزمىّ بصفته أشهر رياضىّ العصر المأمونىّ وأرفعهم شأنا فهو أول من ألف فى الحساب ، وصاحب الفضل فى نقل الأرقام العربية إلى أوروبا وأول من استعمل كلمة « جبر » للعلم المعروف بهذا الإسم ، ومن هنا أخذ الإفرنج هذه الكلمة واستعملوها فبقيت فى لغاتهم حتى اليوم ناطقة بفضل العرب عليهم فى هذا العلم الجليل . وهذا الأستاذ العظيم هو كذلك مؤلف كتاب « الجبر والمقابلة » أول كتاب عربى أُلّف فى هذا العلم فترجم إلى اللاتينية وبقى من الكتب الرياضية الرئيسية التى تدرس فى جامعات أوروبا حتى القرن السادس عشر وليس أدل على ما نقول من حسن رعاية المأمون للعلماء وتوجيههم فى تلك الفترة الخالدة من الزمن من كلمة أستاذنا « الخوارزمى » التى يستهل بها كتابه « الجبر والمقابلة » حيث يقول : « وقد شجعنا ما فضل الله به الإمام المأمون أمير المؤمنين مع الخلافة التى حاز له إرثها وأكرمه بلباسها وحلاه بزينتها من الرغبة فى العلم والأدب وتقريب أهله وإدنائهم وبسط كنفه لهم ومعونته إياهم على إيضاح ما كان مستبهماً وتسهيل ما كان مستوعراً .. الخ والآن نكتفى بهذه اللمحة عن الخوارزمى العالم الرياضى الجليل لنستأنف الحديث عما أسداه خليفتنا العالم للعلوم الكونية من الخدمات الجليلة فنقول : أما غرة جبين الأعمال المأمونية فهى فى الواقع « دار الحكمة » التى

أنشأها في بغداد سنة ثلاثين وثمانمائة ميلادية ، فكانت (كما يحدثنا الأستاذ الراوى) « تشتمل على الكتب الشرعية واللسانية وماترجم عن اليونانية والفارسية والسنسكريتية والكلدانية والقبطية » . وجمع إليها الخليفة أعاظم المترجمين والعلماء فكانت أشبه شيء بمتحف الإسكندرية الذى أنشأه البطالسة في أوائل القرن الثالث قبل الميلاد وليس أدل على اهتمام خليفتنا بدار الحكمة هذه من أنه كان يحضر إليها الكتب من جميع أنحاء المعمورة . فيحدثنا التاريخ بأنه بعث مرة إلى حاكم صقلية يأمره بأن يرسل إليه جميع الكتب العلمية والفلسفية الموجودة في مكتبة صقلية الشهيرة ويحدثنا كذلك بإيفاده تلك البعثة العلمية إلى بلاد اليونان لإحضار مايجدونه من الكتب اليونانية العلمية ونقلها إلى العربية . ولكن ماهو ألذ مما تقدم وأمتع اشتراط خليفتنا على « ميشيل » الثالث في صلحه معه أن يعطيه إحدى مكاتب الآستانة ..

وبعد فلقد أجمعت الروايات التاريخية على أن الخليفة المأمون كان يحث الناس على استيعاب مافي بطون هذه الكتب من العلوم وعلى أن القادرين والأغنياء من شعبه حذوا حذوه فأغدقوا على المترجمين العطاء لنقل مايرغبون فيه من الكتب إلى العربية .

وما أجمل أن نعرف أن مأمونا هذا العبقرى كان قد خصص يوم الثلاثاء للمناظرات التي كان يترأس جلساتها ويولى أفرادها من ضروب الرعاية والإكرام والعطف ما يعجز عن تصويره البيان . ولقد كان لهذه المجالس المأمونية أياد على العلوم الكونية بيضاء ، ففي مجلس من هذه المجالس العلمية الحافلة طلب المأمون إلى نخبة من العلماء تصوير العالم « بما فيه من بر وبحر وسهل ووعر ونجوم وأفلاك ومدن وشعوب » فكان له ما أراد ودعيت هذه الصورة « بالصورة المأمونية » نسبة إليه وكانت كما يقول الثقات من المؤرخين أحسن مما تقدمها من الخرائط اليونانية

وفي مجلس آخر من هذه المجالس أيضا كلف خليفتنا بعضهم بتأليف كتاب في الجغرافية أعان عمال دولته على التعرف إلى البلاد التي أظلتها الراية العباسية وكلف آخرين بإدماج النتائج المهمة التي كان قد توصل إليها مرصدا بغداد ودمشق في كتاب أسماه « الزيج المصحح » .

ونقول والأسف يملأ قلوبنا ، إن هذا الكتاب قد ضاع في جملة الكتب العربية التي ضاعت . ويقول الدكتور غوستاف لوبون فيه : « ويمكننا أن نعلم صحة تلك النتائج التي اشتمل عليها كتاب « الزيج والمصحح » من الدقة العظيمة التي عين بها انحراف سمت الشمس في ذلك الزمن فقد كان رقم الانحراف كما حقق فيه ثلاثاً وعشرين درجة وثلاثاً وثلاثين دقيقة واثنتين وخمسين ثانية ، أي ما يعادل الرقم الذى انتهى إليه علماء الوقت الحاضر .

وبعد فحسب المأمون فخراً أنه كان حر الرأى يقرب العلماء على اختلاف أجناسهم وأديانهم . وكيف لا يكون كذلك وهو إنما بالمعرفة يدين ، وبالعقل يتمذهب ، وناهيك بالمعرفة والعقل من موحدين جامعين !

فترى مما تقدم أن المأمون كان حقاً من أكبر العوامل في ازدهار العلوم الكونية في عصره وهذا ما قصدت إليه .

والآن أنهى كلمتي هذه مستشهدة على عظمة المأمون العلمية بعبارة تحضرنى لمؤرخ فرنسي جاء فيها : « إن المأمون طبع عصره بطابعه الخاص وأكسبه تلك العظمة الأدبية العلمية التي اشتهر بها فيما بعد » .

فأى عقل هذا كان للمأمون وأى فضل ! ! .

رعد الكبالى

مصادر البحث

١ : تراث العرب العلمى لقدرى طوقان

٢ : العرب للدكتور فيليب حتى

٣ : « مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى » لسيد أمير على

٤ : « بغداد مدينة السلام » لطه الراوى عدد ٢٧ من سلسلة إقرأ .

٥ : « مظاهر العبقرية الإسلامية » نشرة السنة الرابعة عشرة من الرسالة الغراء بقلم الدكتور خليل جمعه الطوال .

٦ : «أدبيات اللغة العربية» جمع نخبة من الأساتذة

٧ : « عصر المأمون » للدكتور احمد فريد رفاعى

٨ : قسم الفلسفة والإلهيات من كتاب «تراث الإسلام» تأليف الفرد جيوم Alfred Cuill Aume رئيس كلية كلهام عربه وعلق عليه توفيق الطويل .

٩ : « حضارة العرب » تأليف الدكتور غوستاف لوبون نقله إلى العربية محمد عادل زعيتر .

١٠ : وفيات الأعيان لابن خلكان .

صور من الحياة (بقية المنشور على صفحة ١٤)

شمالها ، وهناك بعد أن يصل إلى محل « جباتى » (وهو عبارة عن ساحل واسع من الرمل ، ويعتبر من متنزهات المدينة الجميلة ، وهو من أوسع ميادين المدينة لاجتماع الجماهير للاستماع إلى خطب الزعماء والسياسيين وغيرهم ويتسع لأكثر من مائة ألف شخص) وتقع فيه حديقه من أبدع الحدائق العامة ، وهى الحديقة المعلقة التى تشتهر ببناياتها المنسقة على شكل حيوانات مختلفة متنوعة .

وهناك ميزة فى بنايات المدينة الحديثة ، إنها متناسقة الارتفاع حيث لا تسمح بأن تعلو المبانى على ستة أدوار ، فتبدو متشابهة متجانسة لا يشوه شوارعها الارتفاع العالى أو الانخفاض الواطى .

وتوجد أرض منبسطة جميلة جداً تدعى الحديقة البيضوية حيث تمتد لمسافة طويلة وتكسو الخضرة الدائمة أرضها ويحيط بها نخيل جوز الهند، وفى نهايتها ملعب المدينة الأول لكرة القدم ، وتقام فيها مباريات وتمرينات « الهوكى والكريكت وكرة القدم ، ومن محلات الترفيه والرياضة للسكان ساحل « جهو » وهو يعتبر من أكثر سواحل المدينة جمالا ومساحة ، وقد شيدت على رماله بعض المقاهى والفنادق البسيطة ، وهو من البقع الجميلة جداً ، وهو يشبه ساحل رأس البر لولا وجود نخيل جوز الهند على شاطئه واختلاف طراز المبانى فيه .

فى المدينة متاحف كبيرة ، وأهمها متحف القلعة قرب مدخل باب الهند ، وقد افتتح عام ١٩٢٤ وقد بنى بفخامة وبحجم يتناسبان مع مساحة وغنى البلاد .

وهناك متحف « البرت » «وفيكتوريا» بجانب حديقة الحيوان ، ومع أن الهند هى موطن الحيوانات والزواحف والطيور المختلفة ، إلا أن هذه الحديقة أقل حدائق الحيوان العالمية شأناً ، فهى مهملة ، قذرة ليس فيها إلا القليل من الحيوانات والطيور ، وهناك متحف ممتاز للأسماك والأحياء المائية ، وقد أنشىء حديثاً .

هذه بعض صور من الحياة فى بومبى . ولنا عود فى الموضوع إن شاء الله .

بومبى — يعقوب يوسف المحمد

هنا الكويت

(بقية المنشور على ص ٣١)

- افتتحت فى الكويت هذا العام خمس مدارس جديدة هى مدرسة خالد بن الوليد للبنين وقتيبة للبنين وخديجة وعائشة للبنات ومدرسة الميدان للبنين .
- تتخذ الإجراءات اللازمة بشأن فتح مدرسة للبنات فى قرية الفحيحيل وذلك لرفع مستوى فتاة القرية الكويتية التى لا تزال محرومة مما حظيت به زميلتها فى المدينة مع أن التعليم كالشمس والهواء وحق متاح لجميع أفراد طبقات الشعب كما وصفه معالى الدكتور طه حسين .
- لا يزال العمل قائما بهمة ونشاط فى المدرسة الثانوية الجديدة وسوف لا يمضى عام حتى تكون المدرسة قد انتهت بكل مرافقها .

طرف من عُمان

(بقية المنشور على ص ١١)

قال أعاهد الله أن رأيت ابن مرجانة فى الحرب لأقتلنه أو أموتن دونه فكان وجهه مع إبراهيم ابن الأشتر وكان على خيل ربيعة ، فلما التقى الجمعان، قال إنى عاهدت الله على قتل الخبيث ، فبايعه ثلاث مئة على الموت. فلما التقوا حملوا وجعل يهتك الصفوف مع أصحابه حتى وصلوا إليه، فثار الرهج وانفرجت عن الناس، وهما قتيلان ، عبيد الله والتغلبى وهو الذى يقول :

كل عيش قد أراه قذراً
غير ركز الرمح فى ظل الفرس

ولما قتل عبيد الله وانهزم جيشه ،أتى عمير «قرقيسيا» وصار مع زفر ، فجعلا يطلبان كلبا واليمانية بمن قتلوا من قيس ، وشغل عنهما عبد الملك بقتال مصعب بن الزبير وتغلب عمير على مدينة نصيبين ، ثم استأمن إلى عبد الملك فأمنه ثم غدر به فحبسه ، فاحتال على الحباس فهرب من الحبس وعاد إلى الجزيرة ونزل على نهر البليخ بين حران والرقة فاجتمعت إليه قيس فكان يغير على كلب وقبائل اليمن .

« يتبع »

الكويت — عبد الله على الصانع